البديل التربوي الاستراتيجي للحد من التدفق الشباني على قوارب الهلاك

الدكتور: حسين لوشن، جامعة باتنة، الجزائر

الملخص:

إن الهجرة المرشدة، والتي يتحرك ويغادر أصحابها بعض المناطق والبلدان لأسباب موضوعية، بحيث يجنون من ورائها النفع لهم ولغيرهم ولمجتمعاتهم، تصبح ظاهرة اجتماعية يستحسنها الرأي الخاص والعام.لكن الهجرة الطائشة، والتي تمس أغلى ما في رأس المال البشري (الشباب)، والمتنقلون على قوارب الهلاك، والمتجهون نحو المجهول، وحينها يكترثون من ورائها هم وأهاليهم سوى الندم والويلات، لذلك باتت ظاهرة احتماعية تستقبحها الشعوب، وتعارضها الأعراف والقوانين الدولية.

Résumé :

L’immigration rationalisée, laquelle abandonnent ses gents des régions et pays pour des cause objectives, afin qu'ils gagnent à partir de cette immigration des biens pour leurs propres intérêts leurs proches et pour leurs société, sera donc un phénomène sociale accepté par le point de vue personnel et publique

Par contre l'immigration clandestine, celle qui touche la valeur la plus importante dans le capital humain (la jeunesse), et ceux qui se déplacent dans les navires de la mort, destinés vers l'inconnu, ne subirons, eux et leurs familles, que le regret et le malheur, c'est pour cela que ce phénomène sociale est donc rejeté (in accepté) par les peuples, et opposé par les normes et les lois internationales.

مقدمة:

ما كنا على دراية وانشغال به، قبل وأثناء معالجتنا لهذا الموضوع، وطرحه للحوار والنقاش، وخاصة لما اطلعنا وقمنا بقراءات حول الهجرة وبكل أنواعها.

لقد توصلنا إلى حقيقة، أنه لم يحصل حتى الآن، أن استقرت الآراء والمواقف، في العديد من حقول المعرفة الإنسانية، كما لم يوجد ولو شبه إجماع بين السوسيولوجيين، فيما يخص التسمية التي تتعلق بـ:**نظام الهجرة**.

كون الهجرة ظاهرة اجتماعية وسكانية، ولها امتدادات مكانية وزمانية، وأبعاد إنسانية وقانونية وحقوقية... كثيرة، تتطلب جهدا كبيرا ووقتا طويلا لحصرها.وهو الأمر الذي يحيلنا في هذا العمل والتحليل العلمي، أن نشير لأهم أنواع الهجرات، والتي شهدتها الشعوب في العقدين الأخيرين، سيما ومجموعة البلدان، لا تقع على مستوى خط واحد في الرفاه بشكل عام، إذ فيه الدول الغنية وأغلبها الفقيرة.

وبالنسبة لنوع وطبيعة الهجرة، التي نقصد تناولها هنا هي **الهجرة الدولية**،هذه الأخيرة التي أفرزت سياسات، موجهة لتحصين مختلف الأنظمة والبنيات، والأنسجة القائمة في المجتمع، وبعثت بدورها على الاستقطاب، والارتقاء بمستويات الوعي والمعيشة، وذلك من خلال التغيير الهادف، والتطور والتحول نحو الأفضل.

وبالمقابل توجد سياسات، أخفقت في إحداث التنمية الحقيقية، وترتبت عنها تراجعات كبيرة، أدت إلى شرخ وتصدع في العديد من كيانات الواقع الاجتماعي، مما آلت إلى توليد ظروف هيأت حالة الدفع، فكان ضحيتها المئات والآلاف من الشبان، الذين يتدفقون باستمرار على قوارب الأفق المجهول.

لذلك فتحمس واندفاع الشباب، واهتمامهم بالهجرة غير القانونية، وانزلاقهم نحو المخاطر، وركوب قوارب الهلاك والموت، سوف تستثيرنا هذه الوجهة المدمرة، لأغلى ما تمتلكه بعض البلدان العربية، بما فيها الأمة الجزائرية،

وكباحثين نكرس الطروحات الاستراتيجية، وجب علينا أن نولي عناية لمثل هذه الظواهر، معتبرين في ذلك أن البديل الأنجع والمتمثل في الآتي:

1. إعادة وضع سياسة تنموية حقيقية، تبني وتقوي ولا تصدع وتهشش الواقع الاجتماعي للشباب
2. إيجاد ممرات لحركية فعالة، داخل التركيبات والأنسجة الاجتماعية، وتحصين وتثمين المواقع التي يحتلها الشباب.
3. رسم خريطة لرصد حجم الثروات والموارد المتوفرة، وتحديد معالم واضحة لخارطة سكانية، قائمة على المشاركة والمساهمة الجماعية للشباب في الإنجاز.
4. توطين مختلف الشروط المرغوبة التي تتطلبها الحياة، وبعث نوازع الشعور لدى الشباب بالانتماء والمواطنة، وإثبات الذات في البلد الأم.

وفوق كل هذا، يبقى الشباب المحور والسند الذي لا يمكن الاستغناء عنه في المجتمع، لكن شريطة دعمه بما يستحقه من عدة وعتاد، وتتويجه للمستقبل للعيش في الرفاه والاستقرار والتقدم.

أولا: النموذج النظري التربوي المفسر لتنمية المورد البشري الشباني

ما تستهدفه التربية الإستراتيجية، هو التوفيق بين:

- متطلبات الفرد.
- متطلبات المجتـمع.

... **ولكي يحصل التغير المرغـوب في سلوك الفرد، فإن ذلك يلزم توفير الظروف المناسبـة، لتسهيل عملية التعلم و النماء في جميع جوانب شخصيته، وبشكل متكامل** [1]، وعلى أساس على التوقع، يشترط كلا من **لوكوود D.loowood و ميسجراف P.musgrave** وجود:

1. إتاحــة الفرص للفرد
2. تحديد مركزه الإجتماعي
3. دعم مشاركته داخل حراك إجتماعي متدرج
4. مكافأته عن كل ما يقدمـه للمجتمع [2].

وفي سياق هذه الرؤية التربوية الحديثة، التي تكرس مبدأ التركيز على تنمية مواهب وقدرات الشباب، واستقطابهم ودمجهم مرحليـا، ضمن سياسة مجتمعيـة موجهـة، ومنها التقليل من إهدار إمكاناتهـم واستثمار إبداعاتهم لصالح المجتمع.

وبذلك، سوف يقع تراجع في السلوكات الخطيرة، كإقدام مئات الشبان على قوارب الهلاك، وحينمـا يعي هؤلاء الأثار المدمـرة التي تخلفها هذه الظاهرة، فإن تربية من هذا النوع، ستؤدي إلى تبادل كبير بين فئات المجتمع.

وهو التفسير التربوي الاستراتيجي الذي يقوم على الجمع بين:

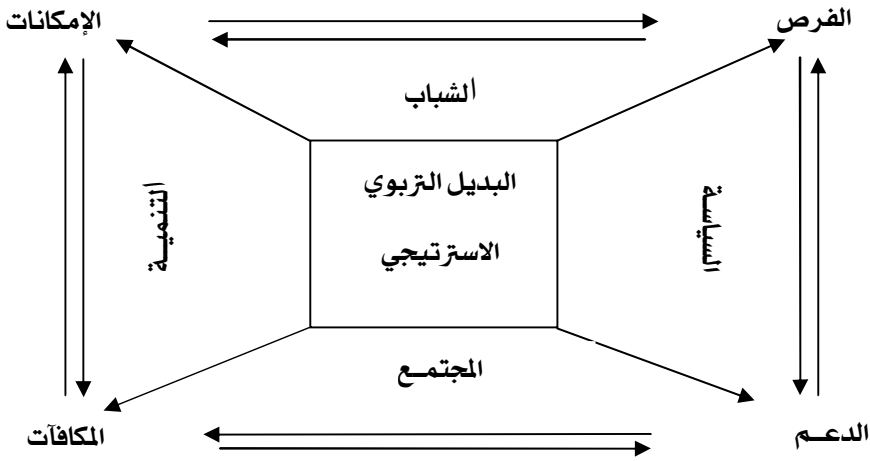

فيه:

1. رشدية السياسية.
2. واقعية التنمية.

3. نمو الشباب.

4. تقدم المجتمع.

ثانيا:التحصين التربوي لمواقع الشباب داخل النسيج المجتمعي

إن عملية التحصين التربوي، في إطارها الاستراتيجي للمواقع، ليست بالمستعصية على ذوي العزائم الخيرة، وتتأتى من خلال إحداث حركية، وتدافع حضاري بين الأجيال، المتعايشة في ظل قوام وكنف الدولة.

هذا فضلا عن تعيين ممرات، داخل الأبنية الاجتماعية المختلفة، تسمح لكل الشباب من الإلتقاء، والتقارب والانفتاح على بعضهم، والانصهار والالتحام كقوة فاعلة وحيوية في المجتمع، ويتم هذا عن طريق:

1. اتباع سياسة تربوية متكاملة، تفي باحتواء أفكار ورغبات وميول الشباب، وتسترشدهم ليكونوا فعلا أبناء واقعهم، بكل مسراته وتحدياته.
2. إرساء مناهج وقواعد تربوية، وأطر في التكوين للشباب، تؤهلهم لامتلاك القدرة على الاستعداد، والتجاوب وخوض معتركات الحياة ومواجهة مقتضياتها.
3. استشعار أمجاد الماضي في الذاكرة الشبانية، ونقل وتعليم قيم المساواة والإيخاء والتسامح، والتحسيس والتبصير بالمصير المشترك.
4. توثيق الصلة بين الأجيال، على اعتبار، ... **أن العلاقة بين المجتمع والشباب، يجب أن تكون قوية ومتماسكة، وبقاء التوازن بينهما، قائم على الأخذ والعطاء الإيجابي**[3]، وفي سياقها يتم تعريفهم بمكامن النجاح والتفوق، وأن العصر يفرض وجود جيل يكون أهلا له، وبكل المقومات والواصفات المطلوبة .

5. تطويع العقول النيرة والأيدي الآمنة للشباب، والإقرار الضمني بأن الجيل الفتي له القدرة على صنع الأحداث، وتحقيق الإبداعات الباهرة، وذات النفع الكبير لأوطانهم وللناس.
6. احترام المكانات التي تموقع فيها أبناء المستقبل، وترشيدهم لحمل رسالة الأمل، وباقتدار وإخلاص وتفاؤل.

الموقف الأول

يُعد الحرص على هذا المسلك، تعبيرا وبمصداقية وتمثل، عما يجب أن نكون عليه أبناء الجزائر، إذ تجعلنا الهجرة السرية لشبابنا نحو المجهول، والتي تفشت بشكل متصاعد منذ سنوات.

ولعل من بين أسبابها، ذلك التصدع التباعدي بين الأجيال، وعليه...**فإن مشكلة صعوبة التكيف والإندماج، تعتبر مؤشرا على الهجرة**[4]، سيما إذا كانت باتجاه الدول الأجنبية.

بمعنى، تضييق قنوات الحوار والتواصل مع الشباب، قد تؤدي بهم هذه التربية والمعاملة غير الصحيحة، ليقتنعوا بأن الواقع في المجتمع، مبني على أساس البقاء فيه للأسبق والأفضل والأقوى، وليس للأصلح والأمين والأثبت.

وهي معادلة، تتطلب إعادة صياغة موازينها في الحياة، حتى تأخذ مساراتها القويمة، واسترشادنا في هذا التصور الموضوعي، يرتبط بالأفكار التي كان وراءها كبار المربين والمصلحين.

ثالثا: الارتقاء بالوعي التربوي للشباب في الانتماء والمواطنة وإثبات الجدارة

لكي يثمر الارتقاء بوعي الشباب، تربويا وبشكل استراتيجي معلن، يجب أن يتضح في رسم خطوط ومحددات، خاصة بالتفكير النافذ إلى العمق، والتعبير الدال على المقاصد، واليقظة والحس المرهف، وكذلك التصرف المجدي والسلوك السوي، مما تساعد على بلوغ الأهداف المرغوبة.

وحتى يعتلي جيل الشباب، لهذه المستويات من النضج الحضاري، سوف يكون لزاما الاهتمام بما يلي:

1. مد الشباب بالعدة الكافية، وذلك... **بتحسين واقعهم، حتى يعيشوا زمانهم بكفاءة وفاعلية، وعلى مقدار ما يكون نجاحهم في ذلك منطلقا من أفق مبادئ ورموز المجتمع، سنجد رقيا آليا وفوريا في مواقف وعيهم**[5]، وتلك هي خاصيات اجتماعية وحضارية.
2. تمجيد مقام العائلة والقرابة، والجوار والأخوة والنسب والصداقة، وجماعات الدراسة والعمل في نفوس الشبان، وكل الأطراف التي من شأنها أن تبعث روح الاعتزاز بالانتماء داخل المجتمع.
3. تقوية الشعور عند أبناء المستقبل، بقيمة الأرض ووحدتها، وتفتيق المدارك والهمم حول الديمومة، عبر المكان والزمان وحتى المجتمع.
4. حفظ مقومات الهوية، وتجسيد دائم بناء الشخصية، الخاصة بالشباب على النطاق الفردي والجماعي والمجتمعي.
5. حث الشباب لإحياء تاريخ الأمة وتراثها، وفهم الامتدادات الأصيلة، بغية إثبات عراقتها، ووفاء الأجيال المتعاقبة عليها.
6. تشكيل قاعدة انطلاق في الإصلاح، واستغلال كل العناصر التي توفر مع الوقت أسباب النجاح والتطور، وجعل الجيل الفتي بعدا في النهوض بالمجتمع حاضرا ومستقبلا.

الموقف الثاني

ما يليق التنويه به في هذا المقام، هو تذكير بعضنا وبأمانة وصفاء السرائر، بصفتنا ننتمي منبتا وفكرا ووجدانا، وكيانا موحدا للجزائر بلد التضحيات الجسام.

كما يقع على عاتقنا نحن الجيل المخضرم، أن ننمي عند شبابنا وأبنائنا، روح الانتماء وذلك... **برفع درجات وعيهم، وتحريك العواطف والميول لديهم، وجعلهم يدافعون عن الوطن، ويتشبثون بالهوية الوطنية، وكل ما يحدد مكانتهم الشخصية**[6]، باعتبارهم جيل يعول عليه، رفع التحديات التي هذه الأمة العريقة في تاريخها وحضارتها.

وما يجدر أخذه في الحسبان، أن العديد من الدراسات والأعمال السوسيولوجية، قد أظهر أصحابها وفي تنظيراتهم وتحليلاتهم، أن تمسك الأفراد بوطنهم، إنما يرجع وينشأ عن القيم والضوابط والمبادئ السامية، التي تغرس في كافة النفوس البشرية، في إطار كينونة وإنتمائية مستمرة.

رابعا: السياسة التنموية الموجهة للشباب

السياسة الإستراتيجية في مجال التنمية، تعني إرادة ورشد وعقلانية أصحاب القرار، والقائمين على إدارة وتسيير شؤون الهيئات والمؤسسات في المجتمع، بقطع العهد وشحذ العزائم والهمم من جديد، لوضع الأسس والمبادئ، والإجراءات والترتيبات والإعدادات، وكل الاعتبارات التي تؤدي وتضمن التكفل المعنوي والمادي بالشباب، وذلك من خلال:

1. إتاحة فرص التدرج للطاقات والكوادر الشابة، ضمن هرم السلطة في المجالات التشريعية والتنفيذية والقضائية.
2. تطبيق العدالة الفعلية في المجتمع، والملزمة لأداء الواجبات ومنح الحقوق بقوة القوانين، وآداب وأخلاق الأعراف، حتى ينال الشباب قدرا من الإحساس بالكرامة في الوجود الإنساني والمدني.
3. إيضاح سبل المبادرة للشباب، وعدم تهميشهم عما يجري في المجتمع، لأنه حسب...**ما خلصت عليه أحداث الدراسات، أن أهم التحديات التي تواجه بعض البلدان في المنطقة العربية، في الإصلاح المؤسسي والحكم**

الرشيد، وتوفير فرص العمل وخصوصا للشباب[7]، وهي ممارسات يترتب عنها إهدار لأقدر رأس المال البشري.

4. فتح المجال واسعا للحوار والمشاورات المستمرة، والإصغاء العملي لمختلف المطالب التي يطرحها الشباب، وعلى مستوى كافة النطاقات الاجتماعية

5. تكوين المؤسسات الإسنادية، وتعيين وتخويل القيادة والتصرف، للطاقات والمواهب الفتية، لاكتساب الخبرات والكفاءات والمهارات بشتى صورها.

6. توظيف جميع الإمكانات المالية والمادية، وتخصيص ميزانية إضافية للدعم المباشر، وجعل الشباب يستفيدون من البرامج والمشاريع التنشيطية والترقوية.

الموقف الثالث

إن التأكيد على هذا المنهج، مفاده أن نضع نصب أعيننا، نحن الجزائريين طليعة وتطلعيين، الهجرة غير الشرعية التي يقوم بها الكثير من شبابنا، كملمس للجد والتوقعات.

وفي هذا السياق، تصبح الدولة معنية... **بإدخال هذا النوع من الهجرة، في استراتيجياتها التنموية بصورة منتظمة، مع تفادي المخاطر الناجمة عنها**[8]، وهو طرح حديث ينزع إلى تكريسه بعض الاستراتيجيين، والخبراء الدوليين في الآونة الأخيرة.

خامسا: المشاركة والمساهمة الجماعية للشباب في الإنجاز والإبداع

إن الظفر بنجاح المشاركة الإستراتيجية في الإنجاز والإبداع، توجه يقتضي التركيز على تفعيل دواليب الاقتصاد القائم على الاستثمار، والهادف للتشغيل

الرشيد لرؤوس المال العام والمادي والتكنولوجي، وخاصة الثقافي ورأس المال البشري.

وذلك باستيعاب الموارد الفتية، وعقلنة توظيف القادرين على العمل، في المشاريع والهياكل محل البناء في المجتمع، كونها رهانات تقترن بما يتطلع إليه الشباب، وهو الأفق المستقبلي الذي يفرض:

1. نشر ثقافة الشغل بين الأوساط الشبانية، وفتح منافذ للحراك داخل القطاعات، قصد امتصاص البطالة، ودمج العاطلين ليسهموا في تنمية المجتمع.
2. تثمين مراحل التكوين والتدريب، بضمانات تسهل الانتقال الرسمي إلى عالم النشاط، والانخراط في المؤسسات والمنشآت الخدمية والإنتاجية.
3. تنظيم اتحادات وجمعيات وفرق، وتأهيلها للقيام بمختلف المهام والممارسات، ذات النفع الفردي والمجتمعي.
4. إبرام اتفاقيات وتسجيل عقود، تمنح على أساسها الصلاحيات، والحرية في اختيار نوع التخصص والوظيفة والسكن، وغيرها من ضروريات وكماليات الحياة الاجتماعية.
5. تشجيع المبادرات المثمرة، والتي يشرف على إدارتها الخيرة من أبناء المجتمع، ومكافأتهم واحترامهم وتبجيلهم بكل استحقاق.
6. تطوير سبل العيش الكريم للشباب، الذي يأتي ببذل الجهود الخالصة، والتدبير المحكم وعرق الجبين، والسهر وتحمل المشاق والمتاعب والصبر عليها.

الموقف الرابع

المسألة التي يجب أن نفهمها على الأقل هنا، تظهر في وجود ارتباط وثيق بين... **الأنماط المؤسسية والحياة العملية للأفراد، باعتبار أن الفرص المهنية والوظائف الثابتة، لها تأثير كبير على توقيت القرارات الهامة**[9]، وفي توافقها سيكون الرابح هو المورد البشري.

وبالمقابل، وحين النظر إلى المرحلة التي مر فيها أغلب الشباب الجزائري، بنوع من حالة اليأس للشغل، لقد ذهب البعض منهم إلى جعل الهجرة السرية هدفا مستقبليا، ومن ثم الدخول في عالم المغامرة والمخاطرة حتى بالحياة، وهي رؤية يؤكدها العديد من المحللين السوسيولوجيين والاقتصاديين.

الخاتمة :

لقد اتضح من الأفكار التي قدمناها في هذا العمل، أنه من الأهمية القصوى والعملية، وبما يخدم الشباب في الآونة الأخيرة، داخل البلدان العربية وخصوصا الجزائر، هو التكفل بانشغالاتهم، والحرص على إيجاد وإقامة:

1. مواقع محصنة داخل النسيج المجتمعي، وتعزيزها كي تعيد الثقة في نفوسهم، وطمأنتهم بالقدرة على بلوغ أهدافهم في الحياة.
2. وعي راق وخلاق، يمكنهم من حفظ ديمومة هويتهم وتاريخهم وتراثهم، ووحدة أوطانهم وأمتهم المجتمع، والدولة بكل مقوماتها.
3. سياسة تنموية حقيقية، تتحرك نحو تخليصهم من المعاناة التي يعيشونها، وفك الخيوط الممدة للأزمات القيمية والمادية، التي تنخر في عزائمهم وطموحاتهم المستقبلية.
4. مشاركة فعلية وفي مختلف الميادين، متوجة بترشيد مساهماتهم في الإنجاز، لأجل تحقيق مستويات من الرفاه، وعيشهم في اكتفاء واتساع في الاسترزاق.
5. جسر للتواصل في كل الجهات، واعتبار أن مستقبلهم هنا في بلدانهم وبالذات في الجزائر، وليس خارجها وفي الأقطار الأخرى.

وللإشارة، فإن الحد من عملية التدفق معلى قوارب الهلاك والموت، والتي ذهب ضحيتها المئات من الشباب، والتخفيف من وطأة الوضعيات المتأزمة، والحرجة التي يجدون أنفسهم يعيشونا، إنما تتم من خلال الاهتداء إلى البدائل الإستراتيجية، ودعمها والوقوف في تطبيقها على الواقع، ودون تراجع أو توقف في المستقل، وهذا لإحداث حالة من الاستقطاب والاستقرار، وليست حالة من الدفع والهجر غير الشرعية، سواء عبر البر أو البحر.

❖ هوامش البحث

(1) سعيد التل وآخرون: **المرجع في مبادئ التربية**، دار الشروق للنشر و التوزيع، عمان، الأردن، 1993، ص397.

(2) السيد علي شتا وفادية عمر الجولاني: **علم الإجتماع التربوي**، مكتبة ومطبعة الإشعاع الفنية، الإسكندرية، مصر، 1997، ص.ص 235-236.

(3) إحسان محمد الحسن: **النظريات الاجتماعية المتقدمة**، الطبعة الثانية، دار وائل للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2010، ص 194.

(4) بوناح كمال: **بعض المفاهيم والمقاربات الخاصة بدراسة الهجرة**، مجلة العلوم الإنسانية، العدد 24، جامعة منتوري قسنطينة، الجزائرص 125.

(5) عبد الكريم بكار: **تجديد الوعي**، الطبعة الثاني دار العلم –دمشق- سوريا والدار الشامية، بيروت، لبنان، 2005 ص18.

(6) غسان منير حمزة سنو وعلي أحمد الطراح: **الهويات الوطنية والمجتمع العالمي والإعلام**، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 2002، ص. ص 24-25.

(7) تقرير المعرفة العربي: **(نحو تواصل معرفي منتج)**، دار الغرير للطباعة والنشر، دبي الإمارات العربية المتحدة ، 2009، ص 11.

(8) روبرت كاسين وآخرون: **السكان والتنمية** ترجمة: علي حجاج، دار البشير للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2001، ص 327.

(9) فالتر.ر. هانيز: **مراحل التحول عند الشباب وتشغيلهم في ألمانيا**، ترجمة: سعاد الطويل، المجلة الدولية للعلوم الاجتماعية العدد:164، الطبعة العربية تصدر عن مركز مطبوعات اليونيسكو، القاهرة، مصر، 2000، ص50 .